رت م د :2353 - 0367

رت م د إ: 5507-2602

مجلة "آفاق فكرية"

ص. ص. 247 - 265

سؤال الإنسانية في العلم المعاصر

The Question of Humanity in Contemporary Science

وفاء برتيمة

جامعة باتنة 1 (الجزائر)، philowafa25@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2021/04/28 **تاريخ القبول:** 2021/05/15 **تاريخ النشر:** 2021/06/30

ملخص

هدفت هذه الورقة البحثية إلى تشخيص مظاهر القطيعة بين الأخلاق والعلم في متتالية من التماسف العلائقي والإجرائي متفاوتة المجالات الحساسة والاستراتيجية، خاصة في أزمنة العولمة التي بلغت فيها الحروب العسكرية والتكنولوجية والطبية ذروتها في القرن (21) الذي يمكن وصفه بالفظيع، وهذا ما جسدته الممارسات الراهنة باسم العقل الأداتي والعلم والتقنية ضد القيم الإنسانية ومصيرها المشترك، لاسيما أن مساعي المركزية الغربية لم تتوقف عند الردع النفسي للأخر؛ بل عمدت إلى تطويق حاضره وسحق ماضيه بمخالب التقنية التي مزقت خصوصيته الثقافية؛ ونسف طموحاته المشروعة في البناء والتقدم، وما مظاهر الحرب العسكرية والبكترية إلا توطين لهذا التأزم الأخلاقي للعلم اليوم، و الذي يختزل الحياة لصالحه وفق قانون القوة الذي يقضي على كل معول إنساني-الضمير - ويقدم النسبية والمنفعة والمادة أركان للاستمرار والبقاء، هذا ما يزيد من فجوة التفاوت بين كفة الجلاد والضحية أو الغالب والمغلوب؛ في ظل أيديولوجيا التقنية التي تكفل التفوق للغرب الصناعي الذي يزرع رعبه في العالم من خلال حرب التسلح والحروب الجرثومية والاستهلاكية وصناعة البديل الإنساني من خلال الربوتات الذكية التي تهدد الحيز الإنساني، ومرجعياته الأخلاقية تحت سلطان العلم المادي الأحادي.

كلمات مفتاحية: أخلاق، العلم، قطيعة، إنسانية، مستقبل.

Abstract

This research paper aimed to diagnose the division between morality and science in a succession of relational and procedural contacts of varying sensitive and strategic areas, especially in times of globalization in which military, technological and medical wars peaked in the 21st century. Which can be described as horrible, and this is embodied in the current practices in the name of the religious mind, science and technology against human values and their common destiny, especially since the efforts of western centralism did not stop at the psychological deterrence of the other; Which tore apart his cultural specificity, and blew up his legitimate ambitions in building and progress, and what manifestations of military and bacterial war is the settlement of this moral crisis of science today, and who reduces life to his advantage in accordance with the law of power that eliminates every human-conscience responsibility- Relativity, utility and material provide pillars for continuity and survival, which increases the gap between the hand of the executioner and the victim or the dominant and the defeated, under the ideology of technology that ensures superiority of the industrial West, which sows its horror in the world through arms war and germ wars. Consumerism and the manufacture of human alternatives through smart knolls that threaten human space, and its moral references under the authority of mono-physical science.

Key words: Morals, science, humanity, break, future

مقدمة

يطرح التقدم المطرد للعلم ونتائجه المحسومة لصالح التقنية و الآلة أو ما يعرف بالعقل المادي الأداتي المهيمن؛ سؤال ما بعد الإنسان أو الإنسانية المتحولة التي تعمل التكنولوجيات المعاصرة على تحقيقها بدعم امبريالي مرحب ومتبني لمشاريعها، وهذا ما يخلق تغييبا يكاد يكون مطلقا في احترام أخلاقيات الامتداد الإنساني وايتقا التعايش المشترك أمام المخاطر التي ينتجها العلم باكتشافاته الطبية والعسكرية خاصة المستثمرة في إبادة الإنسانية بالتجارب النووية والكيماوية، وصناعة نسخ انساني في ما يسمى بالهندسة الوراثية في علم البيولوجيا وغيره من الربوتات المبرمجة ..، ما قد يفقد الإنسان خصائصه الإنسانية ويلغي طبيعته ويصبح الإنسان في حاضره ومستقبله مهدد بجدل التمديد أو الموت في الحيز الكوني ،وفق معايير العلم الوضعي وطموحاته التي تستثمر في ثنائية الإنسان نحو المجازفة اللامسوؤلة؛ المفارقة التي تضعنا أمام تساؤلات شائكة حول رهان الإنسانية ومستقبلها في ظل تصاعد اختراعات العلم التكنولوجية والصناعية المتعرية من القيم، خاصة في المجال العسكري والطبي ومنه نتسأل عن: مستقبل الإنسانية إلى أين في ظل تغول طموحات العلم و سيطرته المادية مع غياب المرجعيات الأخلاقية خاصة ؟ أو بمعنى مغاير: إلى أي مدي يمكن استحضار سؤال الأخلاق في راهن الإنجاز العلمي وانعكاساته على مستقبل الإنسانية ؟ فرضت طبيعة الموضوع علينا المنهج التحليلي لتوافقه مع حيثيات الطرح وانعكاساته الواقعية من مخاطر قابعة كنقطة ظلام تهدد الحضارة الإنسانية وتخسف البعد الهووي للإنسان في امتداده الكوني.

1. جدل التماس والتماسف بين العلم والأخلاق

الحديث عن العلم والأخلاق هو إبحار في الجذور والفروع والأغصان والثمار إذا كان العلم(Science)أساسه العقل والواقع فإن مبادئ العقل التي يحتكم عليها –مبدأ الهوية، عدم التناقض، الثالث المرفوع، مبدأ السببية، مبدأ الغائية – تؤكد قيمة الوعي بالمسؤولية الأخلاقية لمهمة العلم وأهداف العلم فإن كان هذا الأخير يعني: «بوجه عام المعرفة وإدراك الشيء على ما هو عليه وبوجه خاص دراسة ذات موضوع محدد وطريقة ثابتة توصل إلى طائفة من المبادئ والقوانين وينصب على القضايا الكلية والحقائق العامة المستمدة من الوقائع والجزئيات» (مذكور، 1983، ص. ص.123، 124)؛ في حين يفيد معنى أخلاق(Ethique) لغة: «جمع خلق وهو العادة والسجية، والطبع، والمروءة، والدين إنه صورة الإنسان الباطنية، وهي نفسه وأوصافه ومعانيه المختصة به» (ابن منظور، 1988،

ص.194)، واصطلاحا عرفها "**الجرجاني**": «الخلق عبارة عن هيئة لنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية، فان كان صادر عنها الأفعال الحسن، كانت الهيئة خلقاُ حسن وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة، سمية الهيئة التي تصدر عنها هي مصدر ذلك خلقاً سيئا» (جمعة، 2009، ص.21)؛ ومنه ارتباط الأخلاق العملية بالممارسة العلمية يطرح جدل بين القطيعة والمسايرة في طبيعة العلاقة بينهما في إطار المنجز الإنساني والحضاري، إن الحديث عن أخلاقية العلم لا يعني بالضرورة أخلاق العالم الشخصية بقدر ما هي أخلاق مهنية وحكومية أي قانونية، فإذا وجدنا: «العلم يؤدي إلى حروب وكوارث ويشجع على القسوة والجشع، فلنعلم أن هذه الصفات ليست مرتبطة بالعلم في ذاته، وإن ما هي نتائج تترتب على التصرف بطريقة معينة في نتائج العلم، وكان من الممكن لو تصرفنا بهذه النتائج بطريقة أخرى أن يكون العلم خيرا ورخاء كله، أي أن طريقة استخدام العلم هي التي تحدد مدى أخلاقيته أو لا أخلاقيته» (زكرياء، دس، ص.176)، لأن مشروعية وشرعية العلم تتوقف عند المخاطرة بمستقبل الكون كلية.

يطرح العلم المعاصر مشكلات جوهرية لصيقة بالممارسات الفعلية للعقل العلمي العملي ومنجزاته الحضارية على مستوى منطق القيم خاصة بعد تصدع العلاقة بينه وبين مبحث القيم بسبب أمواج الحداثة العاتية التي هزت بسقف المقدس وكل المنظومات الأخلاقية لصالح التقدم التقني ومنطق السوق وأخلاق التشيؤ، وهذا ما تعمل الفلسفة لمعالجته في سعيها لتسطير جملة قواعد للفكر والعمل معا لتجاوز الشرخ المتأزم بين ما يجب أن يكون وما هو ممارس ويمارس وسيمارس في حقل العلم، غير أن التطور الرهيب للألة والتقنية والتقدم التكنولوجي المشهود يبرر رغبة العالم المتفوق في نزعة التغول وأنانية المصالح الذاتية في مقابل هدر حقوق الآخر؛ وفي هذا تناقض بين حضارة العقل وممارستها التي تتحيز لأخلاق اللامعقول والتوحش المادي الفاحش يؤكد "**جياني فاتيمو Gianni Vattimo**": «إن التقنية تمثل أزمة الخط الإنساني، لأن انتصار العقل ينفي القيم الإنسانية، فالتقنية صيرورة معممة لإنسانية فقدت إنسانيتها» (فاتيمو، 1998، ص.4)؛ وهذا ما أكده "**فؤاد زكريا**" في كتابه –التفكير العلمي -والذييرى فيه أن علاقة العلم بالتكنولوجيا بدأت منذ القرن (16)أو(17) م: «وعلى أية حال فإن ما يهمنا من هذا كله هو أن العصر الحالي يشهد تداخلا وثيقا بين العلم والتكنولوجيا زالت معه الحواجز الزمنية التي كانت تفصل بينهما في القرن الماضي، وظهرت في ظله أنواع جديدة من البحوث العلمية التي تجمع بين الأسس النظرية والجوانب التطبيقية في آن واحد» (زكرياء، دس، ص.138)؛ ما يبرر تعقيد طبيعة العلم بين البعد الأخلاقي واللاأخلاقي حتى أن

الهيئة المعاصرة لصورة العلم تستقرأ توأمة مركبة بين العلم والأخلاق لكنها تصب في دائرة التوأمة الغير حقيقية؛ مما يرجح طابع التماسف على التماس بين العلم وأخلاقياته في رهان المنجزات الحضارية التي تعكس التقاطع الواقعي يقول **"عبد الوهاب المسيري"**: «...في إطار النماذج العقلانية المادية يقولون أن ظهور الكمبيوتر المتأله مسألة حتمية».(المسيري، 1999، ص.158)؛ فالحضارة الغربية التي تتمتع بالقوة والإمبريالية والهيمنة على سائر مجالات الحياة نتيجة انفصالها عن القيم الإنسانية والأخلاقية وتجاوزها لهما بحكم مرجعتها المادية، قد أضرت بالهوية الإنسانية حيث أصبح الإنسان في العصر الحديث بتعبير **"المسيري"**: «في قبضة العقل الأداتي، الذي تحول فيه الإنسان من الإنسان إلى إنسان اقتصادي وجسماني» (المسيري، 2006، ص.320)، فهذا الانسلاخ الكلي عن القيم، يكشف مدى تأزم الحضارة الغربية بفعل معالمها الحداثية المادية الشاملة، نتيجة سيطرة العلم والمادة المنفصلين عن القيمة فـ**"آلان تورين"** الذي يقول في ذلك: «نشهد بوضوح أن غياب أسس الأخلاق وما بعد الأخلاق الاجتماعية قد أدى إلى انتصار الأخلاق الاجتماعية والنزعتين النفعية والوظيفية» (نقلا عن المسيري، 2006، ص.223)، وقد شمل هذا الانفصال عن القيمة سائر أوجه النشاط الإبداعي للإنسان، معرفية وأخلاقية واقتصادية فالحضارة الغربية لم تحفظ مفهوم الهوية الإنسانية، الذي يتخذ له **"عبد الوهاب المسيري"** أبعادا أخلاقية، لأن القيم المقدسة سارية على جميع الأفعال التي يأتيها الإنسان منذ ولادته إلى موته، لكن الحضارة الغربية القيم الأخلاقية فيها متغيرة بتغير المعطيات الاجتماعية والاقتصادية وحتى العلمية والتقنية، خاصة وأن: «منطق العلم ذاته كان منفصلا عن الإطار الأخلاقي والإنساني، هو نقطة قصوره فالعلم الغربي يفترض انفصال الإنسان عن الطبيعة ثم سيطرته عليها وتسخيرها لصالحه، وأن هذا الانفصال قد يؤدي الآن إلى تبديدها تدميرها» (المسيري، 2006، ص.176)،فالنظام العلمي والتقني الغربي ألحق بالإنسان كوارث عظيمة قمعت حريته، وهددت وجوده وقيدت إبداعاته في ظل ارتباط العلم الغربي بالقوانين المنطقية، أو القوانين الطبيعة التجريبية في إثبات مسائله دون العودة إلى المرجعية المعيارية لأن الأخلاق في مجال الحداثة المنفصلة عن القيمة تصبح أمرا شخصيا لا علاقة لها بالحياة العامة السياسية والاقتصادية والاجتماعية؛ وهكذا ازداد الاهتمام بعلاقة العلم والتكنولوجيا في الفترة المعاصرة: «في عصر الثورة الصناعية أخذ الجمع بين العلم والتكنولوجيا يزداد قوة بالتدرج بعد أن ظهرت فائدته العلمية بوضوح قاطع ،إذا أن التطور الذي كان يستغرق مئات السنين على أيدي صناع مهرة أصبح يستغرق سنوات قليلة عندما يتدخل فيه العلم» (زكرياء، دس، ص.137)؛ وفي ظل تراجع التقدم العلمي عن الضوابط القيمية

وجدت أخلاقا: «تهتم بالنهب المادي لدرجة عبادته وهذا ما أدى إلى الإعلاء بالفردية وتجاهل الجماعة، ومنه انتهى أي معنى للحياة وأي معنى للقيم المطلقة، وأصبح العلم والتقنية غايتان في حد ذاتهما والمشاكل الأخرى المتعلقة بالحب والجمال ليست موجودة بالأصل» (غارودي ، دس، ص.47)؛ مما يؤكد حدود التماسف ولو نسبيا بين الأخلاق والعلم أو وفجوة التباعد بين العلم والقيم على الأرجح في زمن الحداثة المادية وسيطرة الأداتية الكاسحة على أصعدة الحياة وهذا ما يعمل الخطاب النقدي المعاصر على فضحه وتعريت نواياها الخبيثة تحت شعار تقدم الإنسانية على حساب التراجع القيمي الذي يصنف به الإنسان في خانة الإنسانية لأن تفريغ العلم من الأخلاق هو المساواة بين العالم المفكر الصانع المتجرد من ضميره وواجبه بالربوتات الجامدة المبرمجة ماديا لصالح مشاريع استلابية لهوية الإنسان والأخلاق والعلم معا.

2. منعطف الأخلاق والعلم وأزمة الإنسانية

إن الحضارة الأوروبية المادية تقوم على ركيزتين: النزعة العلمية التجريبية والنزعة الاستعمارية فهي تجريبية لأنها تتعامل مع الطبيعة والإنسان على أساس أنهما موضوعات قابلة للقياس والكم أو التقدير من ثمة إخضاع كل البنى للغة الكم ومساواتها بالطبيعة في جانبها المادي.

مما يعني أنها شيئة وحوسلة الإنسان لوسيلة أو سلعة يقول "غارودي": «تظن الحداثة أن العلم والتقنية هما المعايير الوحيدة للتقدم، يقودنا دين الوسائل هذه إلى الهاوية، حفارو القبور هم هؤلاء الذين يروجون له، هكذا يحفرون بلا –تبصر- قبورنا» (غارودي، 2002، ص.11)، هذا ما يعكس التخطيط العالمي للإستراتيجية الاستعمارية الكونية الأمريكية الصهيونية في الهيمنة على العالم من خلال وسائل التقنية والتكنولوجيا أو العولمة والاقتصاد والجنس...فهي حضارة تميل إلى الهيمنة بمختلف الوسائل بغض النظر عن طبيعتها ضارة أو نافعة للأخر: «أن قانون الغاب هذا لم يزل يميز المجتمعات الغربية المبنية على النمو وعلى ميزان الرعب» (تفاحة، دس، ص.29)؛ مما يقنن لأخلاق القوة والعبثية خارج إطار المعول الإنساني أي الضمير.

ما يفهم أن الحضارة الغربية لا أخلاقية سادت فيها أخلاق حديثة وغريبة: «ما يسمى علم الأخلاق الحديثة هو سلوك إباحي لم يتساءل أبدا حول المعنى الذي تحمله الضوابط قبل رفضها، لا تقع مثل هذه الأخلاق "فيما وراء الخير والشر" لكن من جانبه» (تفاحة، دس ، ص.105)؛ حيث اعتبرت هذه الحضارة أن الإنسان شيء وليس وراءه روح ولا أساس لوجودها، فقد أنكرت جميع القيم الأخلاقية والاعتبارات التي تقوم على فكرة وجود الروح وقد كان صاحب كتاب أصل الأنواع، العالم

البيولوجي "داروين" من أكبر المساهمين في هذه النظرة إلى الإنسان وتجريده من أي امتياز خاص عن الحيوان، ثم جاء "فرويد"بعد"داروين" الذي منح للإنسان هوية جنسية (Sexualidentity) دونية تحتل مركز يعادل المخ، فهي مصدر كل السلوكيات النابعة عن الإنسان حصيلة دوافع لاشعورية تتمحور في الكبت الجنسي المتصاعد في مؤشرات التنامي والانتشار، وهذا فصل مطلق بين القيم والتحليل النفسي لـ"فرويد" من منظور علميته، وهذا ما يبرر التوسيع من قطاعات اللذة والإعلام الإباحي وتجارة البغي...الخ.

من خلال هذا تصل الحضارة الأوروبية إلى اعتماد قاعدة تتمحور في: «أنه ليس هناك فضيلة مطلقة ولا رذيلة مطلقة وأن كل شيء نسبي ولما كان الأمر كذلك فان هذه الحضارة هي كذلك نفعية، مما جعلها حضارة غادرتها الطاقة الأخلاقية لأنها أخذت كل شيء من باب المادة والطبيعة، مما جعل الأخلاق تزداد ضعفا كلما انفصلت عن الروح» (أشفيتسر، 1980، ص.222)،لذلك يرى "غارودي" أن هذه الحضارة تتجه نحو انتحار كوني (Conny's suicide) وهنا نجد "فؤاد زكريا" يربط تراجع البعد الأخلاقي في العلم بالتقنية؛ ويجزم أن هذه الأخيرة مشروع أيديولوجيا السيطرة والمركزية: «وأيا ما كان الأمر فمن المؤكد أننا لا نستطيع في عصرنا الحاضر أن نفصل على نحو قاطع بين العوامل الأيديولوجية والعوامل العلمية و التكنولوجية لأن التأثير بين الطرفين متبادل، فالعلم يتأثر بالاتجاه الأيديولوجي للعلم إذا تتحدد في ضوء هذا الاتجاه أهداف العلم والأولويات التي تعطى للأبحاث العلمية، كما يتحدد في ضوئه مركز العلم وسط أنواع النشاط الأخرى التي يقوم بها المجتمع، ولكن الأيديولوجيا ذاتها تتأثر بالعلم، لأن نوع الصراع الإيديولوجي الدائر في عصرنا الحاضر يتحدد إلى مدى بعيد بالشكل الذي وصلت إليه المجتمعات المعاصرة بفضل العلم» (زكرياء ، دس، ص.202)؛ وهذا ينطبق على ما وقع فيه العلم المعاصر الذي اقتفى أثر الحداثة وتنصل من الرقيب الأخلاقي حيث ولد هذا الانفصال شذوذ في طموح العلم الذي بلغ أوج التطورية والاكتفاء الصناعي في العالم الغربي المتقدم و أعلى من سموم أيديولوجيا محسوبة سلفا لانتصارات الحضارة الغالبة وهذا ما أشار إليه "هابرماس" (Habermas) في كتابه -العلم والتقنية كإيديولوجيا -: «ربما كان مفهوم العقل التقني ذاته أيديولوجيا، وليس استخدام التقنية بدءا إنما التقنية ذاتها سيطرة على الطبيعة وعلى الإنسان، سيطرة منهجية علمية محسوبة وحاسبة وليست الأهداف المصوبة لسيطرة ومصالحها لاحقة وتملي إرادتها من خارج التقنية بل تدخل في تكوين الآلة التقنية ذاتها» (هابرماس، 2003، ص.44)، مما خلق صور متناقضة بين مظاهر الثقافة والسلوكيات البربرية المتعايشة فيه فهو يجمع بين النقيض وضده

وهذا خلل منطقي يكشف عن عاهات نفسية متجذرة في نزعة التطور والتمركز والسيطرة: «إن الجماعات والأمم التي بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم، هي على وجه الدقة الجماعات والأمم الآخذة في الضعف والتي ستكون عودتها إلى البربرية والهمجية أسرع من عودة غيرها إليها ولكنها لا تدرك ذلك، إذا ليس هناك ما يحميها من الظروف العدائية التي شيدها العلم حولها، وحقيقة الأمر أن مدينتنا مثل المدنيات التي سبقتها أوجدت أحوالا معينة للحياة من شأنها أن تجعل الحياة مستحيلة» (كاريل ،1980، ص. ص. 41، 42)؛ وهذا حول المنجز العلمي والإبداع الإنساني العقلي من مكسب إلى خسارة في ظل تجرده من القيم الأخلاقية وحدود سؤال الممنوع والمسموح؛ فأصبحت ميزة الإنسان المعاصر في ظل إمكانيات الراحة والرفاهية و عصرنة أساليب العيش تتسم بحالات الانهيار العصبي والنفسي لما يصنعه المشهد التقني والتكنولوجي من خرقات تختزل ثنائيته في البعد الأحادي المادي سواء في قوالب المنفعة الاستهلاكية أو الجنسية أو المركزية، فقد حدث انقلابا أنثروبولوجيا عميق في بنية الإنسان التكنولوجي الراهن الذي خرج من عالم النظام نحو اللانظام والفوضى و التشظي؛ لأن فلسفة الحركة وفلسفة الفعل تقتضي عقل يسير نحو الأهداف لا يعبث بها بسبب فضول المعرفة والمجازفة بمستقبل الإنسان لصالح الآلة والمادة.

منذ الحضارات القديمة تميز الإنسان بميله للإبداع والصناعة ، لذلك وصف بأنه جبل على التقنية فهو انتقل من بساطتها اليدوية إلى صورتها الحداثية، وهذا ما عبرت عنه العولمة التي اختصرت العالم في فضاء واحد وربطت العلم بالأحداث غير أن هذا التطور المبدع تدرج وفق منحى ديمومة متعاقبة جسدت مراحل إبداع العقل الإنساني واكتشافاته: «ابتداء من ثورة المحرك والطاقة إلى ثورة الإنسان الآلي إلى الثورة الإعلامية فثورة التكنولوجيا الإحيائية وهي ثورة ما أصبح يصطلح عليه بثورة التكنولوجيات الحديثة، وهكذا فإن الانتصارات التي حققها الإنسان على الطبيعة وعلى الظواهر التي كانت حتمية، وكذا على السلوكيات المتوحشة التي كانت سائدة، كل ذلك كان مرده إلى -ترويض الكون بواسطة التقنية –على حد تعبير Heidegger» (ميشو، 2005، ص. ص.14،13)؛ لكن ارتقاء الإنسان من مرحلة حب البقاء إلى مرحلة حسن البقاء وما بعدها أوقع به في براثين الطمع والتمادي في البحث والاختراع والصناعة دون الاكتراث للجوانب الأخلاقية فاكتشاف الأدوية هو انتصار ضد الأمراض وخطر الأوبئة مع احتمالية الموت، لكن تمرد العلم عن أخلاقياته جعل بعض الأدوية تهدد سلامة حياة الإنسان لاشتراك بعضها مع خصائص المخدرات و المهلوسات التي أصبحت تروج في الأسواق السوداء؛ مثال ذلك أن: «في الستينات من القرن الماضي جعلت المخدرات التي كان "بود لير" يقول عنها انها تسمو

بالإنسان حتى تجعله يبلغ مرتبة الآلهة ،تنشرا بين الناس رمزا للإمكان الغير محدود، واجتهد منظرو المخدرات في أن يقدموها على أساس أنها في الآن ذاته نزعة صوفية (فشعار مخدرLSD) كان هو أريد أن أرى الله جهرا، وسياسية خلق علاقات جديدة بين الناس أم حجر الزاوية من ذلك كله فهو امتداد الوعي» (ميشو، 2005، ص.ص.888، 889)؛ بمعنى التحرر من الممنوع والمحظور وتصبح بذلك يوتوبيا التحرر من القيم الأخلاقية مسألة فردية لا تخضع لضوابط المجتمع ولا أخلاق العلم الوقائي لتنتقل من حيز المخاطر إلى دائرة تجاوز حدود القانون، وكأن الأخلاق غير معنية بما يسوقه العلم الإنساني من لذة وألم معا.

غير أن أنواع الكينونة تفرض نمطا لأسلوب المتبع والرائج في العصر المادي المنفصل عن القيمة والمعرف بسيطرة التقدم العلمي المتحرر من إنسانيته، وهذا ما يتجلى في الاستعمال غير سليمي لأغراض العلم واختراعاته حيث لا يتم استحضار الأخلاق وحدود ومشروعية الاستعمال والاستغلال للمنتج العلمي و إبداعاته؛ وهذا ما تترجمه مظاهر الحروب ووسائلها التكنولوجية، فيسحق الخصم بمختلف مستويات الإبادة والتشويه، ومرد ذلك فعل التطور الرهيب لذكاء العلمي والتقدم المادي أصبحت الحروب تستخدم الأسلحة النووية الحرارية والكيماوية والجرثومية والغازية، إضافة لصواريخ والأقمار الصناعية والأسلحة الإشعاعية وأمام فائض الترسانة النووية والعسكرية وارتفاع أرقام الصناعة التكنولوجية، بات هاجس احتمال حدوث حرب عالمية ثالثة واقع النقاش في ظل تجرد العلماء من ضمائرهم الإنسانية وتسخيرها لاستغلال الجنس البشري في أغراض التجارب العلمية واعتباره كقطع غيار لا كشريك إنساني في إطارا لمجمع الكوني الإنساني المشترك بوصايا الهيمنة العالمية التي تخفي إيديولوجيات إرهابية تهلل للعدم دون مراعاة حجم التكلفة الإنسانية والحضارية يعلق "غارودي" على حقيقة خلفية التقدم العلمي في الحضارة الغربية التي تحتكم لثقافة "فاوست": «إن الثقافة الفاوستية التي تنطوي عليها هذه الحضارة تزعم أن الحياة مقصورة على الضرورة والمصادقة ،كما يقول واحد من علماء حياتها وعلى الشهوة العابثة كما يكتب واحد من فلاسفتها وعلى الموت...وموت الإنسان وموت كل شيء» (غارودي، 1999، ص.50)، هذا ما يعزز صحته التطور الصناعي والتكنولوجي الذي يدعم مختلف أنواع الحروب و لاسيما النووية والكيماوية، هذا النوع من الحروب من شأنه أن يخرب الوراثة لمليون جيل، ناهيك لموت الملايين من النوع الحي كون استخدام الأسلحة الذرية والطاقات النووية الغير أخلاقية، يخلق حس العبث واللامسؤولية تجاه الآخر، وتتقلص القيم ويتعطش العقل المادي إلى اللامعقول بممارسته الجنائية، وهذا ما ينتج عن استخدام

تلك الأسلحة التي أنتجها العقل الإنساني العلمي كارثة إنسانية من أهم مظاهرها: «يباد خلال ساعات قليلة أكثر من مائتي مليون إنسان، يقتل مئات الملايين من الحيوانات تزول النباتات من مساحات واسعة، يغزو البحر أراض واسعة بسبب تلاطم الأمواج الناتجة بصورة اصطناعية عن الانفجارات النووية ويغرق أناس كثيرون، من جراء ذلك تلتهم الحرائق مدنا بأكملها، تلتهم الغيوم الإشعاعية حياة الأحياء وتترك فيهم أثارا وراثية لا يمكن التنبؤ بها ينتشر الجوع، تنتشر الأوبئة بواسطة الجراثيم التي تلقيها الصواريخ و الأقمار الصناعية، تتغير عوامل المناخ» (فرنر، 1988، ص.11)؛ أين الضمير الخلقي في الممارسة الإجرائية للعلم أليس التساؤل في حدود وأهداف العلم من شأن الفلسفة التي تهتم في مباحثها بالأخلاق؟ وما يجب أن يكون عليه الفعل الإنساني لتصحيح وتجاوز ما هو كائن وهو ما يجسده مبحث القيم أو الإكسيولوجيا في حين تبحث في العلم ضمن مبحث الابستمولوجيا الذي يتناول نظرية المعرفة والعلم قضايا ه ومشكلاته نتائجه وأفاقة...الخ.

ماذا سيكون مصير الكائنات الحية والنوع الإنساني خصوصا أمام الاستغلال الغاشم لاختراعات العلم ،وتجاربه الإشعاعية التي من شأنها إنهاء مستقبل الإنسان وجنس الأحياء؟

من التجارب التي تثبت خطورة الإشعاعات وراثيا على الأحياء تجربتين جرتا منذ أكثر من: «عشرة -10- سنون في مخبر نفيل بفرنسا التجربة الأولى: عرضت ذبابة لمقدار معين من الإشعاعية، فاجأت سلالتها الأولى بأجنحة منحنية إلى الأعلى ، أما سلالات الجيل الثاني فكانت بدون أجنحة! التجربة الثانية: عرض عشرون فأرا سمينا للإشعاعية فاجأت أولادها وهي تحمل شكلا مرعبا مما دعا أمهاتها إلى أكلها، باستثناء فأرين صغيرين أمكن إنقاذهما وكان هذان الفأران الوليدان مجردين من الشعر تماما وجلدهما وردي اللون، ولم يكن لهما مكان العينين سوى ثقبين فارغين» (فرنر، 1988، ص.13)؛ إنه عصر الآلة الإنسان إلى مجرد كائن أو شيء خارج القيمة المعنوية، فأصبح بذلك ذات مشتتة لا تحكمها هوية ثابتة حيث تغيرت نظرة الإنسان الغربي لذاته منذ عصر النهضة، لأنه حاول التجرد من كل ما يربطه بالعصر الوسيط وثقافته، وتغيرت بموجبها نظرته للكون بأسره لكن ظلت نظرته لذاته أو العالم مرتبطة بفكرة العقلانية، التي قامت عليها الحداثة الغربية المادية لا قداسة فيها: «وظلت الحداثة زمنا طويلا جدا، لا تعترف إلا بفاعلية العقلانية الأداتية بالسيطرة على العالم وهي سيطرة مكن منها العلم والتقنية» (المسيري، 2006، ص.354)، فهذه السيادة في مجال العلم والتقنية أدت إلى الانفصال عن الأخلاق الاجتماعيةوالدينية «إن العلم والتقنية اللذين يستخدمها الغرب للسيطرة على الطبيعة والحضارات اللا غربية، لم يحررا الإنسان الغربي نفسه منذ عصر النهضة، لأنه يظل يعاني

بدوره من استلاب مزدوج كمنتج وكمستهلك» (غارودي، دس، ص.66)، الأمر الذي ترتب عليه جملة من الأزمات في المجتمع الغربي لأنه سعى إلى تحقيق المنافع الدنيوية فحسب، بذلك قطع الإنسان الغربي الصلة بالأخلاق والدين فهو لجأ إلى معايير أخرى لتقويم سلوك الإنسان من خلال معايير العقل والمنطق ومقدار ما تجنيه هذه الأفعال من لذة ومنفعة للإنسان فالحضارة الغربية تقوم: «على النزعة الفردية المتوحشة التي تحول دون استبعاد المجاعة والبطالة واليأس، وحياة بلا أفق، وتجعل جماهير من البشر يصبحون مع مرور الوقت أقل إنسانية وأكثر عرضة لتلاعب وسائل الإعلام، ويصلون إلى العدم بواسطة سيادة الفوضى» (المولى،2001، ص.12)؛مما يؤكد حتمية أفول الإنسان في الطبيعة.

رغم أن المفاهيم الأخلاقية مفاهيم كلية، فإن العقل الغربي لا يمكنه أن يصل إليها، وإن وصل إليها فهو ينكرها تماما ويردها إلى عالم المادة، ويفشل تماما في التمييز بين ما هو أخلاقي وما هو غير أخلاقي، لذلك يصبح العلم حسب"غارودي": « ليس بعلم بل هو أيديولوجية هدفها تبرير نظام اجتماعي معين ينظر إلى الإنسان كأنه حيوان، وما يسمى بالاقتصاد التقليدي الذي يدرس في جامعات الغرب وفي جامعات أخرى للأسف يخفي بديهية أساسية وراء المعادلة الرياضية» (غارودي، 1993، ص.19) ؛فتمكن العالم الغربي من التحكم في العديد من المناهج العلمية والمنطقية في ميدان العلم، جعله يفكر في تطبيقها على الإنسان وهذا ما يشكل خطرا عليه، حيث تحول الإنسان في الحضارة الغربية من كيف إلى كم محض، وبذلك أصبح ما يسري على الطبيعة يسري على الإنسان، ونتيجة لذلك أنكرت حضارة الغرب الأخلاق باعتبارها المعيار الذي يقاس به سلوك الإنسان وهي النقطة التي أثارها "قسطنطين رزيق (1909-2000)" حيث يقول: «لعل أخطر ما يبدو في الآفاق من هذه السلبيات، هو امتداد القدرة العلمية والتقنية من حيز الطبيعة المادية إلى حيز الإنسان ذاته» (رزيق، 2006، ص.47)، وهذا واقع يهدد صيرورة الإنسان وحاضره الشائك بألغام العلم من مخاطر التلوث إلى مخاطر اللقاح ومصداقيته الصحية؟.

3. مستقبل الحضارة الإنسانية إلى أين من قبضة الآلة العمياء إلى رحابة الضمير

لعل مزاعم عصر التنوير تكشف عن اجهاض مبكر لقيم الحداثة الوهمية في الاستعمال المفرط للحرية وتعالي العقلانية المادية والمساس بكرامة الإنسانية وتشويه لمسار التاريخ الدوري، وإن المسؤول الأول على هذا التصدع والتقويض في أسس الحضارة الإنسانية على حد تعبير **"أدريين كوخ Adrienne Koch"** يكمن في الوصف الصريح له: «الحداثة، هذا القرن الفظيع! فمن ذا الذي يتدبر مسيرته وتاريخه ولا يحكم عليه بالفظاعة، ومن ذا الذي ينكر أن الثقة التي كانت تملأ نفوسنا عند

مطلعه زالت من النفوس! هي البارقة الأولى من بوارق الخوف الناشئ عن الصور لاحتمال الدمار الشامل لشخصية الإنسان، الخوف الناشئ عن القنبلة الهيدروجينية، والتعذيب الشديد في معسكرات الأعداء وتجارب الفتك الشامل للبشرية...إلخ» (كوخ، 1963، ص.15)؛ كل هذه المظاهر كانت إرهاص لميلاد الإنسية الجديدة هي: «حركة قائمة على العلم ليكون دائما في خدمة الإنسان ككل عامل اجتماعي إنساني ينتجع خير البشر» (سارتون،1961، ص.15)؛ فهي ضد الانسلاخ القيمي واختزالاته المادية المفرطة في اللاوعي بنتائج الغد الوخيمة، الناتجة عن ارتفاع معدلات التجارب العلمية ضد المركب الوجودي (الكائن الحي +العالم).

كما أن الإنسية الجديدة في أسسها: «تبنى من حول العلم، إن العلم هو لبها، ولكنه اللب ولا أكثر سوف لا تطرح الإنسية الجديدة العلم بل على العكس من ذلك ستستغله إلى أبعد حدود الاستغلال، سوف تعمل على الإقلال من مخاطر المعرفة العلمية مقصورة على فنياتها العملية سوف تمجد ممكنات العلم الإنسانية وتؤلف منها وحدة تعيدها إلى الحياة» (سارتون، 1961، ص.266)؛و هذا طموح أخلقة العلم ومشروعاته المشروعة لأجل غايات كونية.

كما أن من مزايا الإنسية الجديدة أنها: «سوف تجمع العلماء والفلاسفة والفنانين والقدسين في حقل واحد ستؤيد واحدية النوع الإنساني لا من حيث مجهوداته وأعماله لا غير ولكن من حيث آماله ومراميه أيضا وإن شرور ما نسميه (عصر الماكينة) إنما نشأ وربى باستعلاء قدامى الإنسيين وبضيق الأفق الذي اختص به بعض العلماء ومنهم الافتراسين من الناس الذين لا يشبعون، إن (عصر الماكينة) يجب أن يقضى عليه، وأن يحل محله (العصر العلمي) انه لزام علينا أن نمهد الطريق لثقافة جديدة تقوم أول شيء على العلم بأوسع معانيه وصوره أي على العلم المؤنس-تلك هي الإنسية الجديدة» (سارتون ،1961،ص266)؛ فهي تضع محور اهتمامها الإنسان في أبعاده الماهوية.

إن تحويل الطبيعة الإنسانية إلى جزء محوري من التقنية والتكنولوجيا لأجل تجاوز مآسي الإنسانية نحو رسم أمال تحرر الإنسان من الأمراض والعلل الوراثية؛ يبدو مبررا أخلاقيا لكن الهوة السوسيولوجية والمعيارية التي أحدثتها التقنية على مستقبل الإنسان هددت سلامته الروحية وافرغته من منطق المسؤولية الأخلاقية وحدود حريته، لأن تاريخ الطب ومساعيه في القضاء على جميع الأزمات البيولوجية و السعي إلى إطالة عمر الإنسان فيه تمرد على أخلاقيات النواميس الطبيعية الإنسانية وقوانين العيش المشترك: «فمنذ بداية التلقيح وأول عملية الدماغ والقلب المفتوح إلى العلاج الجيني مرورا بنقل الأعضاء أو زرع أعضاء اصطناعية، لم ينقطع الجدل حول الحدود المبررة التي يمكن أن

تبلغها هذه العمليات وأهدافها الطبية، ثم لا شيء من هذا الجدل قد استطاع إيقاف التكنولوجيا» (هابرماس، 2006، ص.35)؛ وكأن الأمر لا يعني مواد القانون وبنود حقوق الإنسان ودور الأمم المتحدة والهيئات الحقوقية العالمية، مما عقد الأزمة الحضارية وانعكاسات صيرورة ازدهار العلم وتوسعه، هذا الوضع المتأزم جعل العقل في حيرة مما أخترعه من انحرافات علمية.

إذا البحث عن منافذ النجاة يكون بناء على: «ما نطرحه من سؤال هنا إنما يتعلق بتهذيب الطبيعة الإنسانية بمعنى إعادة تقديس مشكوك فيها، فالعلم والتقنية قد زادا من مساحة الحرية على حساب انحلال اجتماعي أو فك السحر عن الطبيعة الخارجية، ويبدو أنه لابد من وضع حد لهذه النزعة الجامحة من خلال إقامة تابوات مصطنعة وتاليا من خلال "إعادة السحر" إلى الطبيعة الداخلية» (هابرماس، 2006، ص.35)؛ لقد أدى التطور العلمي السحيق الذي أعقب مرحلة الحداثة وما بعد الحداثة إلى انتشار ثقافة الدمار والموت بسبب طبيعة الخطاب الغربي المعاصر المهيمن المتأسس على مصالح العولمة و العالمية وما يحمله من إيديولوجيات مغلفة بالمركزية والشمولية الاختزالية لصالح المادي وهذا ما يتجلى في النزعة العدائية والعدوانية والاستعمارية لطرف المتفوق والغالب إزاء المغلوب حيث يعمل الطرف المتقدم علميا وتكنولوجيا بتسخير تطورها لاستعباد الشعوب الأقل منه تطويرا يرى "**غارودي**": «أن في هذا العالم اللا معنى أمام هذه الهزيمة الجديدة للإنسان المتفاقمة بسب القدرة التقنية البربرية المبرمجة الكترونيا، لابد أمام كل ذلك من المواجهة بالبديل لمعاودة الارتفاع إلى الإنسانية» (غارودي، 2006، ص.122)، ورغم أن عدم التكافؤ في القوة لا يبطل مشروعية الحرب حسب منطق القوة لكن يفندها ويلغيها حسب منطق الأخلاق رغم الممارسات التعسفية الناجمة عن تسخير نتائج العلم في هلاك مستقبل الإنسانية وتدميرها: «تصور 12مليار إنسان يمشون على الأرض وكلهم على وشك الموت إما بسبب ضياع طبقة الأوزون التي تحمي الغلاف الجوي أو بسبب التسمم البيئي من جراء التلوث أو من أثار حرب نووية أو بانتشار فيروس قاتل يتمتع بفترة تستر وكمون لا تظهر فيها أي أعراض له فينتشر في كل مكان دون أن يرصده أحد، ثم يعلنها حربا جرثومية تقف التكنولوجيا الجبارة أمامها عاجزة، برغم أنها هي التي صنعته بتلوثها للبيئة، فأصبح الهواء والماء والغذاء من وسائل نشر الأوبئة» (راغب،2001، ص.268)؛ هذا ما يدفع بالإنسانية نحو كارثة كونية محتومة خاصة أن العولمة بمثالها التقنية الطاغية في الذكاء لا تعرف التوقف ومنه: «العولمة العسكرية لن تنهي الحروب وإنما ستحول العالم إلى بؤر متفجرة طبقا لخطط أولى الأمر في الدول العظمى والحلف الاطلنطي» (راغب،2001، ص.273)؛ وهذا مؤشر ليس في صالح الحاضر

والغد الإنساني لأن: «المستقبل "ليس ما سيكون" بل ما سنصنعه» (غارودي، 1998، ص151)؛ وهذا يفرض إرادة التغيير والتجاوز بوعي أسباب الأزمة لتسطير الحلول وتقويض العلمي المادي في طموحاته اللامتناهية.

في حين يرى **"جون ليزلى"** في عنوان فرعي من كتابه –الانقراض البشري وقضاياه العلمية والأخلاقية-: «الانقراض البشري أصبح حقيقة قريبة الوقوع وعليه أن يحلل القضايا العلمية والأخلاقية المرتبطة بها والنابعة منها، فهو يؤمن مع بعض أقرانه من العلماء والفلاسفة بأن انزلاق الجنس البشري السريع إلى هاوية الفناء والانقراض، أصبح ظاهرة ملموسة وتتضح ملامحها بمرور الأيام، نتيجة لشهوته العارمة للتقدم التكنولوجي والسباق النووي والتجارب الفيزيائية شديدة الطموح التي تكاد تنسف الغلاف الجوي من حوله، وغير ذلك من الخطوات أو الطفرات التي ضاعفت العولمة من سرعتها بل وجعلتها محمومة» (راغب،2001، ص.266)، كل هذه الجهود لأجل الإمساك بلغز الخلود و تحقيقه، يزعم مؤيدو التكنولوجيا النانوية(nano technology): «إنه سوف يجئ يوم يمكن فيه صنع أي شيئا تقريبا بسعر رخيص ومن خلال تطوير ربوتات نانوية(nano robots) ذاتية الاستنساخ (selfreplicating) قادرة على وضع ذرات المادة الواحدة تلو الأخرى بدقة في أماكن معينة طبقا لبرنامج محدد، كما يمكنها تفكيك المركبات الكيميائية الموجودة في البيئة التي حولنا إلى عناصرها الأولية ثم إعادة تركيبه ذرة بعد أخرى إلى أي شيء يمكن أن تتصوره» (ميشو، 2005، ص.7)؛ بمعنى أن التكنولوجيا النانوية الجزيئية هي: « السيطرة الكاملة والرخيصة على تركيب المادة والتلوث والأمراض البدنية والفقر المادي كلها أشياء تنجم عن السيطرة السيئة على تركيب المادة» (ميشو، 2005، ص. ص. 25، 26)؛ كل هذه المساعي هي تأكيد لنزعة ما فوق الأنسنة أو ما فوق الإنسانيين(Transhumanists) هي نزعة وليدة الإسراف في التفاؤل التكنولوجي والحرص على مستقبل الإنسان حيث عرفت أنها: «الحركة التي نمت بشكل متدرج على امتداد العقدين الماضيين وهي تشجع مقاربة متعددة الاختصاصات لفهم الفرص التي تنشأ بتقدم التكنولوجيا لتعزيز الحالة الإنسانية والإنسان ككائن حي، وتقييم هذه الفرص، ولابد في نفس الوقت من إعطاء الاهتمام للتكنولوجيات الحالية، مثل الهندسة الوراثية والمعلوماتية، وكذلك للتكنولوجيات المتوقعة في المستقبل مثل التكنولوجيا النانوية الجزئية والذكاء الاصطناعي» (ر، وآخرون، 2013، ص.30) ؛ بمعنى أن ما فوق الأنسنة تهتم بالبيئة البشرية في كليتها وتحاول إصلاحها نحو الكمال المستقبلي بحيث تعني ما فوق الأنسنة: «التجاوز الكامل للحالة الإنسانية الحاضرة» (ر، وآخرون، 2013، ص.32)، بحثا عن

مخارج وسلطوية من حكم التقنية الفاسدة و الألة المهيمنة و رغبة العلم الحيوانية مع مراعاة قيم الكرامة الإنسانية والحرية والمساواة والمصلحة العامة.

غير أن استقراء خطيئة العلم تكمن في اختراعات العقل العلمي المجسدة في الآلات المتفاوت التطور والدقة المسخرة في الحروب والمعارك والتي تأخذ شكل روبوتات مثل طائرة دون طيار أو حشرة جوية للاستطلاع أو نشر الأوبئة في أمكان معينة ومستهدفة...ترجم الروبوتات القاتلة المستقلة ذاتيا مثلا: «بمجموعة من التكنولوجيا التي لها ثلاث صفات مترابطة "قاتل" يعني أن الروبوت مزودة – بأجهزة –لقتل أهداف بشرية، "مستقل ذاتيا" يعني أن قرار القتل يتخذه الروبوت نفسه وليس البشر الذين يسيطرون عليه (بكلمات أخرى ليس هناك إنسان يتوسط الروبوت في الحلقة {المتكاملة} من التعرف إلى الهدف {الإنسان} والتحقق من الهدف ثم التخلص من الهدف»(ر، وآخرون ، 2013، ص.32) ؛ ما يفهم أن ما فوق الأنسنة هي استشراف لحياة الإنسان المستقبلية؛ لأن ما فوق الأنسنة تنطلق من: «حالات التكنولوجيا الحالية إلى استشرافات تأخذ الأنفاس حول الخلود وتجاوز الفضاء المادي والتحول الاجتماعي» (ر، وآخرون،2013، ص.32)؛ فهي تعول على ديانة التكنولوجيا والتقنية في تحويل الإنسان وضمان تحسين أحواله من خلال الطب والهندسة الوراثية، والتكنولوجيا الجزيئية خاصة أن: «التقدم في الهندسة الوراثية ونظم المعلومات الروبوتية سوف يسمح بإخراج كائنات بشرية من الأرشيف وإعادتها إلى الحياة، حتى في أجسام متحولة تتناسب مع الحياة على كواكب و أقمارا أخرى في النظام الشمسي» (ر، وآخرون،2013، ص.33)؛ يبدو من الفحص السابق لمنجزات العلم أن الأخلاق مغيبة و محيده ،وكأن العالم المفكر في العالم فقد الوازع الإنساني من نبض الداخلي إن المكاسب التي أحرزها العلم تذوب كقطعة ثلج أمام حقيقة الأزمة التي يشهدها العالم و تتصاعد درجاتها يوميا بسبب التمرد في حب الاكتشاف وفضول التجربة وأخلاقية الحرية العبثية ودليل ذلك مشاهد الدم التي يعد العلم شريك غير بريء فيها ما يحدث من قصف في -اليمن- باسم الشرعية الدولية هو مجزرة إنسانية سخر فيها عقل العالم المكتشف والمخترع لأنواع الأسلحة أخلاقيات الإبادة والتظلم وسلب الحقوق الطبيعية للعيش مما ينذر بكارثة قيمية وفوضى متوحشة تستهلك الاستثمار التكنولوجي في تدمير الوجه المشرق من الحياة ألا وهو البيئة من خلال التجارب النووية والغازات الكيمياوية وغيرها، يقر **"ادغار موران Edgar Morin "** في كتبه "هل نسير إلى الهاوية" بالمخاطر التي ألحقها التطور العلمي بمصير الإنسانية قائلا: «لقد مكن التقدم العلمي من إنتاج الأسلحة النووية وأسلحة أخرى لدمار الشامل كيماوية وبيولوجية وأتاح لها الانتشار الواسع... وقد كانت هذه العولمة

ولاتـزال كـذلك سـببا في خلـق أزمـات لا تفتـأ في تناسـل وتسـير في اتسـاع واستشـراء حتى باتـت تهـدد بالفوضى والسـديم» (موران، 2007، ص.11)؛ كما يتساءل في هذا النطاق **"كارل أوتو آبل"** عـن مسيرة العلـم والأخـلاق المعاصـرة حيـث يقـول: «إن أي مفكـر في علاقـة العلـم بـالأخلاق النظريـة في المجتمـع الصناعي الحديث يجد ذاته في نظري إبان تعميمه على الكرة الأرضية أنه حيال وضع مفارقة، فمن جهة أولى في الواقع حاجة إلى أخلاق نظرية كلية أعني قادرة على أن يعتنقها المجتمع البشري بأسره وهي لم تكن البتة بمثل إلحافها في أيامنا في الوقت الذي نشاهد فيه عبر التأثيرات التقنية للعلم أنشاء مجتمع موحد على مقياس المعمورة، ولكن من جهة أخرى لم تكن المهمة الفلسفية الرامية إلى تأسيس أخلاق نظرية كلية من الناحية العقلية لم تكن البتة شاقة، بل موصولة باليأس، بمثل ما هي عليه في هذه الحقبة العلمية» (روس، 2001، ص. ص، 67، 68)؛ بمعنى يظل الانسان المفكر والصانع المسؤول الأول على ما يحدث من هزات في الوجود الإنساني وكينونته المترامية بين مد وجزر مخاطر العالم ومأمنه وأن: «أرقى أنـواع الآلات تظل على الـدوام أداة طيعـة في يـدى صـانعها، وتتجـه- إن خيرا و إن شـرا- في نفـس الطريق الـذي يريـدها الإنسـان أن تسـلكه» (زكرياء ، دس، ص142)؛ ولأن الـدول العظمى اليـوم تـرى أن مهمة العلم حربية أكثر منها مدنية فأننا ننوه أن علاقة العلم بالحرب عريقة منذ القدم وبدأت تتسع وتنمـو في ظل عصر الآلـة الصماء والضمائر المقعرة أو الميتـة ففي: «القـرن التاسـع عشـر كان معظم التقدم العلمي يتم مباشرة بسبب تطبيقاته الحربية والبحرية»(ديمز موند،2016،ص217)؛فهو مهدد لجنس الكائن الحي بمختلف أنواعه والفضاء دون احتساب منه للعواقب، وهذا جعل العلماء طرف ثاني أو شريك في صناعة الحرب: «فأصبح العلماء ضرورة حربية لازمة للدولة بعد أن كانوا في الحروب السابقة على هامش الحرب» (ديمز موند،2016،ص218)، أي محايدين فمنذ اكتشاف البارود في أواخر القـرون الوسـطى والعلـم يسـير لتطـوير أبحاثـه الحربيـة واسـتخدامه لصـالح الحكومـات القويـة وفي مقدمتها أمريكا والابن المدلل لها **الحركة الصهيونية** وخططها للإستراتيجية اليهودية السياسية العالمية والأخلاقيـة المعاصـرة: «كنـا ننتظـر مجيء الأسـلحة لـيلا ونهـارا، ولـم يكـن لنـا حـديث إلا عـن الأسـلحة، وعندما جاءتنا الأسلحة لم تسعنا الدنيا لفرط فرحتنا، كنا نلعب بالأسلحة كالأطفال، ولم نعد نتركها أبـدا، كنـا نقـرأ ونـتكلم والبنـادق في أيـدينا أو على أكتافنـا» (نقـلا عـن المسـيري، 1999،ص.61)؛ ممـا يكشـف عـن الوجـه الحقيقـي المضـمر للعلـم وهـو الرفيـق الـدائم لأعظـم المجـازر الإنسـانية بأفكـاره ومصنعاته وتقنياتـه الحربيـة في القتـل والمخابرات والـديوان.وما تمارسـه الحركـة الصـهيونية مـن إبـادة

بالتقسيط ضد الشعب الفلسطيني الأعزل يترجم ما وصل له العلم من تراجع أخلاقي لصالح الدول الغربية في بربريتها المشهودة اليوم وتراجع علاقات المجتمع والتراحم وانكماش الوعي الديني.

إذا يعد العنف بكل فنونه وسيلة الدول الغربية الكبرى؛ فهو شكل من أشكال القوة والمركزية والسمو، منوط بهذه المظاهر العسكرية في مناخ الدول القوية؟ إنه لا محال العلم فنفقات التي تصرف في حقل التجارب العلمية كافية لإحياء قارات مضاعفة، غير أن حب الصهاينة مثلا للأسلحة والدم يعكس عقدة مترسبة في الموروث اليهودي، وهذا ما تبرره فاعلية المقولة الديكارتي مقلوبة البنية في الكيان اليهودي الصهيوني: «أنا أحارب إذن أنا موجود» (نقلا عن المسيري، 1999، ص.60) ؛ أمام هذا النزوح المتوحش للعلم عن الطبيعة الخيرة للإنسانية وتجاوز العلم لسقف الكرامة الإنسانية وجب إعادة ضبط الإرادة الإنسانية وتكليفها الأخلاقي لتجنب تمزقات انطولوجية وصدامات إنسانية بسبب سيطرة الآلة والعلم المادي دون الانقياد المطلق لرغبات العلم رغم ما يقدمه من فضائل جمة لصالح الإنسان والعالم: «فليس من حقنا أن نغرق في التفاؤل إلى حد الاعتقاد بأن الآلة قادرة على تحقيق السعادة للبشر أو تخليصه من المعاناة والشقاء بجهودنا الخاصة أو بتطوير ها التلقائي، إذ أننا بذلك نعفي أنفسنا من مسؤولية إصلاح أوضاعنا ونلقي بهذه المسؤولية على الآلة مع إن الإنسان وحده هو قادر على حل المشكلات التي أوقع نفسه فيها مستعينا في ذلك -طبعا – بالتقدم التكنولوجي» (زكرياء، دس، ص. 142).

إذا هناك دعوة إلى إعادة الاعتبار للكرامة الإنسانية وانتشالها من مآزق العقل العلمي الحداثي يقول **"طه عبدالرحمن"**: «يتضح لنا من النظر في مقاصد المنهج العقلي العلمي الحديث أن هذا المنهج قد يطلب النسبية والتفاضل بدل الوحدة والتكامل ويطلب الاسترقاق بدل التحرير، ويطلب الفوضى بدل النظام» (عبد الرحمان، 2006، ص.40)؛ النظرة تسقط الطاهائية مصداقية العلم في رسالته وفق مساره ألارتيابي والمنحرف عن ما يجب أن يكون مما ترتب عليه خلق اختلال في التوزان بين الغايات الكلية والمهام الأخلاقية للعلم التي أخذت منحى منكسر ضد سلامة البشرية جمعاء وكوكب الأرض بتهورها اللامحدود تكنولوجيا لأن العقل التقني والمادي: «ولد نوع من البشر، الإنسان المبرمج ويعني هؤلاء الذين يشبهون العقول البشرية بالكومبيوتر متناسيين أن خاصية الإنسان هي طرح الأسئلة النهائية، وقبلها أسئلة لماذا وما الأهداف النهائية» (غارودي، 2002، ص.91)، وهذه دعوة إلى إعادة ضبط العلم و أخلقته من خلال النظر في ما مدى مشروعية مشاريعه المسطرة في حق الإنسانية أو ضدها؟ مما يوضح طبيعة العلاقة بين الأخلاق والعلم هل هي علاقة من طبيعة مجاورة أم مجاوزة؟

خاتمة

نستشف مما ورد تحليله أنفا، أن تشريح مسألة طبيعة العلاقة بين الأخلاق والعلم في ثنائية متراصة الأدوار متكاملة الأهداف لمحور واحد هو الإنسان وحضارته، هذه يكشف جليا خطورة المنعطف والانشقاق بين الضمير الخلقي والممارسة المهنية للعلم من خلال رصد نتائجه السلبية التي غطت عن مزاياه أمام ما أحدثه من كوارث تهدد النوع الإنساني والكائن الحي و الوجود معا، وهذا ما تبرز تمظهراته في منجزات العلم الحربية ضد القيم الإنسانية وامتداداتها المرجعية السماوية والوضعية في عصر يدين بديانة العولمة ويؤله الآلة الصماء والتقنية المتطورة، لا حسب الحاجة التي تقتضي ذلك في معقولية التقدم بل على اعتبار هذا الأخير وسيلة إشباع مادي ونفسي غير منتهي المصالح الأنانية في جشع العقل العلمي المنفصل عن القيم، ثم أن الحرية لا تعني أن تجازف بمصيرك غيرك فهذا ضد المسؤولية الأخلاقية التي تبرئ منها الكثير في ممارسة أعمالهم لاسيما حين يسخر العلم لخدمة مصالح الدول والحكومات بمعزل عن أحكام الدين و مبادئ الأخلاق ومواد القانون، حتما يضيق الأفق ويصبح الكون مرادف لغابة يأكل فيها القوي الضعيف وهذه سمة عصرنا اليوم الذي يتجه نحو الموت؛ رغم ما قدمه العلم من سبل للحياة لكن يبدو ا وجهه المظلم الأكثر بشاعة في مجازر الأطفال ونسف الشعوب وخراب العمران وإبادة إمكانيات الحياة الطبيعية، والبحث عن ما بعد الإنسان الذي صنعه العلم المادي بالتقنية ما هو إلا دليل على القطيعة بين العلم والأخلاق في شقها الشمولي – الدين- فمهموم ما بعد الإنسان هو تجديد للصراع القديم بين العلم والدين ؛حيث يحتفي العلم ما بعد الحداثي بتفوقه وقدرته على تجاوز وتقويض مسلمات الدين وهذا الفصام أو القطيعة عرفت ذروتها أيام العصور الوسطى، لذلك يجب العودة لبعث القيم الإنسانية وإحياء الإنسان من إقصاء التكنولوجيا له وإحلال الأجهزة المتطورة بن، فالعلم فقد مصداقيته في حكمة التصرف في مستقبل الإنسان وهذا ما أكده "**غارودي**": «لم نعد نثق في العلم والتكنولوجيا ثقة ملؤها التقوى، لأن الحياة الإنسانية أصبحت بحاجة إلى تبرير، وأضحت إمكانية الإنسان تطرح مشكلات كبرى مثل مشكلة الحرية، مشكلة لاختيار، مشكلة الأهداف، واليوم تجاوزت هذه المشكلات جدران المدارس والجامعات وأصبحت مشكلات جميع الناس» (غارودي، 1983، ص.12)، مما يحتم علينا النظر في ثنائية الإنسان وآفاقها المرتقبة بمعزل عن الاستثمار في الوضع الإنساني من قبل العلم ،لأن هذا لن يزيد العالم إلا إفلاسا و خرابا لهذا الإنسان العظيم بعقله شقي بإنجازاته العارية من الأخلاق: «شقي أنت، أيها الإنسان، ما دمت لن تبلغ الغايات، لن تبلغ سوى الأكمل، وتقصر عن بلوغ الكمال، وعظيم

أنت، أيها الإنسان لأنك لا تيأس ولا تقنع بمحدود، فتسعى أبدا لتجاوز ما بلغت من حدود لتصبح كل يوم أقدر، تقوى وتتحرر» (قمير، 1984، ص.63)؛ على أمل التحرر من قبضة العقل التقني نحو رحابة أخلاقية تجمع بين حتمية مراعاة القيم ومعقولية الإبداع العلمي.

قائمة المراجع والمصادر

1. ابن منظور، (1988)، لسان العرب، د.ط.، دار إحياء التراث العربي؛ بيروت.
2. أشفيتسر ألبرت،(1980)، فلسفة الحضارة، ترجمة، عبد الرحمن بدوي، ط2، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع؛دب.
3. بن جمعة بن عثمان الخراز خالد،(2009)، موسوعة الأخلاق،ط1، مكتبة أهل الأثر للنشر والتوزيع؛الكويت .
4. ديمز موند برنال جون،(2016)، رسالة العلم الاجتماعية، ترجمة إبراهيم حلمي عبد الرحمان، مراجعة محمود علي فضلى، تقديم حشمت قاسم، ط1، المركز القومي لترجمة؛ القاهرة.
5. ر. برادن. اللنبي، ساروبتز دانيال، (2013) ، الإنسان الآلة،ترجمة حسن شريف، مراجعة هيثم غالب الناهي، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية؛ لبنان.
6. راغب نبيل، (2001)، أقنعة العولمة السبعة،ط1؛ دار غريب للطباعة والنشر؛ القاهرة.
7. رزيق قسطنطين،(2006)، سلبيات الحداثة وأخطاؤها، الحداثة وانتقاداتها، ترجمة وإعداد محمد سبيلا وعبد السلام بن عبد العلالي- دفاتر فلسفية-(ط1، دار طوبقال للنشر الدار البيضاء؛ المغرب.
8. روس جاكلين،(2001)، الفكر الأخلاقي المعاصر، ترجمة وتقديم، عادل العوا، ط1، عويدات للنشر والطباعة؛ لبنان.
9. زكرياء فؤاد، (دس)، التفكير العلمي، دط، دار الوفاء لطباعة والنشر؛ القاهرة.
10. سارتون جورج، (1961)، تاريخ العلم والإنسية الجديدة، تقديم إسماعيل مظهر، ط1، دار النهضة للنشر؛ القاهرة.
11. طه عبد الرحمان، سؤال الأخلاق، ط3؛ المركز الثقافي العربي: الدار البيضاء، 2006.
12. غارودي روجي، (دس)، لماذا أسلمت؟ نصف قرن من البحث عن الحقيقة، إعداد محمد عثمان الخشت، دط، مكتبة القرآن للطبع والنشر والتوزيع؛ القاهرة .
13. غارودي روجي، (1998)، الولايات المتحدة طليعة الانحطاط –كيف نحضر للقرن الحادي والعشرين- ترجمة مروان حموي، ط1، دار الكتاب ؛ دمشق.
14. غارودي روجي، (2002)، حفارو القبور –الحضارة التي تحفر للإنسانية قبرها – ترجمة عزة صبحي، ط3، دار الشروق؛ القاهرة.
15. غارودي روجي، (دس)، الإسلام في الغرب –قرطبة عاصمة الروح والفكر- ترجمة محمد مهدي الصدر، دط، دار الهدى ؛ لبنان.
16. غارودي روجي، (1999)، كيف نصنع المستقبل؟ ترجمة منى طلبة، أنور مغيث، ط1، دار الشروق؛ القاهرة.
17. غارودي روجيه، (1983)، نظرات حول الإنسان، ترجمة يحي هويدي، ط1؛ المجلس الأعلى للثقافة؛ القاهرة، 1983).
18. غارودي روجيه، (1993)، الإسلام وأزمة الغرب، ترجمة رفيق المصري، ، ط1 ، عالم المعرفة؛ جدة .
19. فاتيمو جياني، (1998)، نهاية الحداثة –الفلسفات العدمية والتفسيرية في ثقافة ما بعد الحداثة، ترجمة فاطمة الجيوشي، د.ط.، وزارة الثقافة؛ دمشق سوريا.
20. فرنر فيكتور، (1988)، الحرب العالمية الثالثة –الخوف الكبير- ترجمة، هيثم كيلاني، ط2، المؤسسة العربية لدراسات والنشر؛ بيروت.
21. قمير يوحنا،(1984)، ما أمسي وما غدي أو التطور الإنساني،ط1،دار المشرق؛ لبنان.
22. كاريل أليكس، (1980)، الإنسان ذلك المجهول، تعريب شفيق اسعد فريد، ط3، دار المعارف؛ بيروت.
23. كوخ أدريين، (1963)، آراء فلسفية في أزمة العصر، ترجمة، محمود محمود، دط، مكتبة الأنجلو مصرية؛ القاهرة .
24. مذكور إبراهيم، (1983)، المعجم الفلسفي، دط، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية؛ القاهرة.
25. المسيري عبد الوهاب، (1999)، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، نموذج تفسيري جديد ،مج1، ط1، دار الشروق؛ القاهرة .
26. المسيري عبد الوهاب،(2006)، دراسات معرفية في الحداثة الغربية، ط1، الق مكتبة الشروق؛ القاهرة .
27. موران إدغار، (2007) ، هل نسير إلى الهاوية، ترجمة عبد الرحيم حزل، ط1، افريقيا الشرق؛ المغرب.

28. المولى سعود، (2001)، تجاوز الحداثة، مجلة الملتقى، دب، العدد03.
29. ميشو ايق، (2005)، ما التكنولوجيا؟ إشراف جابر عصفور، ترجمة، محمد نايت الحاج، عبد الهادي ادريسي، ج5،ط1، المشروع القومي لترجمة، المجلس الأعلى للثقافة؛ القاهرة.
30. هابرماس يورغن، (2003)، العلم والتقنية كإيديولوجيا، ترجمة حسن صقر، ط1، منشورات الجمل؛ ألمانيا.
31. هابرماس يورغن، (2006)، مستقبل الطبيعة الإنسانية نحو نسالة ليبرالية،نقله إلى العربية جورج كتوره، مراجعة أنطوان الهاشم، ط1، المكتبة الشرقية؛ لبنان.